«حتى يبقى العشب أخضر»

وهل كان الانفصال ممكنا

بقلم مطيع صفدي

لا تزال المسألة في قضية الكتابة هي ان يعرف الاديب لماذا يريد ان يكتب . وبقدر ما طرح هذا السؤال وتعددت الاجوبة ، فاننا لم نزل فعلا في حاجة الى وعي السؤال واستمهال الجواب قبل ان نلقي به ببساطة من يرى الامور واضحة كل الوضوح ، ولكنه لا يرى شيئا في الواقع .

ان كتبا كثيرة تتزاحم اليوم في الواجهات ، وتقفز الى عيون المتفرج بعناوين صارخة ، تستغز فيه همومه الشخصية وغير الشخصية. ومع ذلك فان اليأس هو حصاد القراء من اكثر هذه الكتب . فقليلا ما تبرز الحياة التي يحياها الانسان في هذه البلاد ، من الكتب التي تتحدث بلغة هذه البلاد ، حروفا فقط ولا مضامين قط .

ومن انواع هذه الكتب التي قاربت حد اللامبالاة النهائي من قبل القراء ، هذا النوع الذي هو القصة القصيرة . النوع الذي كاد ان يقتله الملل وعدم الاهتمام ، قبل ان يتم غرس جذوره الحقيقية في تربة الثقافة العربية الجديدة .

وانا ، احد الذين يكتبون هذه القصة ، ويتابعون تطورها باهتمام شخصي ، فلما عثرت منذ سنوات على مجموعة تستحق ان تقرأ من الدفة الى الدفة ، وتستحق اكثر من ذلك ان يترك الانسان نفسه لشحناتها وتأثيراتها ، فتأسره وجدانيا قبل ان تستبد به عقليا ، اقول قلما عثرت على مجموعة تماثل في فعاليتها النفسية ، ما في مجموعة (حتى يبقى العشب اخضر) لاديب نحوي .

ان هذه المجموع هي احد الاعمال الممتازة لثمرة الالتزام الحقيقي، الذي كدنا ان نضيع معانيه في مبتذلات الصحافة الادبية .

وبالرغم من أن موجة الالتزام قد انحسرت الى حد ما قبل ان تبلغ اهدافها ، فان بعض الاقلام قد ترمي من خارج الجو الادبي نفسه، بمفاجأة، تعيد بعض الثقة بهذا الاتجاه .

ولسوف نرى ان اديب نحوي الذي جاء القصة مناضلا ، قبل ان يأتيها مختصا ، قد نجح في تحقيق الكثير من المميزات التي كان يطمح الى انضاجها ادب الالتزام عن طريق المختصين من الكتاب .

فالقصة (الشعبية) بقيت مفقودة تقريبا من الادب القومي . واذا كان بعض الملتزمين اليساريين قد حاولوا ان يعالجوا هذا النوع من القصة، الا انهم كانوا يفتعلون (الشعبية) ، اكثر مما يعانونها او يعايشونها من الداخل ومن الصميم . وكانت عقبتهم دائما انهم محجوزون اما ضمن اطار ثقافتهم التي اكسبتهم برجزة فكرية ، او ضمن اطار طبقتهم الاجتماعية البرجوازية الاصل . فلم تكن النزعة نحو (الشعبية) لتكفيهم في خلق ادب شعبي حقيقي .

ولذلك كان الافتعال يجر مدعي الشعبية الى اكثر الميزات سطحية للقصة الشعبية . فسادها هذا التهويل في كل شيء ، في الالام والمصائب. واصبح عامل التضخيم للفقر ومشتقاته ، هو الاساس في فهمهم للالتزام. وكانت شخصية ابن الشعب في تصورهم ذات متناول خارجي خالص، اسير للظروف المادية التي يقاسي منها . وحتى عندما يكتشفون فيه اصالة البساطة ، فهم يجردونها من اي حساسية انسانية ، ويوحدون بينها وبين الغباء . وكذلك فانهم اذا عرفوا فيه ايضا صفة السذاجة ، فانهم يخلطون بينها وبين الجهل الاعمى . انهم باختصار يأتون الى الحياة الشعبية بشعارات خارجية . وبذلك يضيعون اي احتكاك فعال مع خوافي هذه الحياة الحافلة الغنية بالمشاعر واللدنيات الدقيقة ، والانفعالات العميقة .

ثم ان اكثر الادب المتجه نحو الالتزام بالقضايا الشعبية ، يتناول جوانب الحياة الشعبية وهي في حال من التكرار والجمود . وقلما انتبه اديب الى هذا التناول من خلال الفعالية والنشاط الذي يصل الى اعلى حدود التمرد والثورة .

ان اديب نحوي في هذه المجموعة المفاجئة ، لا يسجل نصرا نضاليا فقط ، ولكنه نصر فني ادبي حقيقي ، عندما استطاع ان يتجاوز دفعة واحدة ، كثيرا من عثرات الادب الشعبي الملتزم . فيقدم لنا اكبر مأساة عربية ، بعد مأساة ضياع فلسطين ، مأساة ضياع الوحدة بتلك الضربة الغادرة في انفصال ما زال يستمر ويتعقد منذ الثامن والعشرين من ايلول ١٩٦١ ، يقدمها لنا ، لا من خلال الامها وفواجعها ونكساتها المختلفة في نفوس الناس من آباء وابناء ، من نساء واطفال فقط ، ولكن من خلال حياة النضال الشامل الذي رفض ان يعترف بهذا الانفصال ،وما زال يؤكد هذا الرفض بكل وسيلة .

ان الانفصال كمأساة وكثورة على المأساة ، في حياة الجماهير من ابناء سورية ، ظل ضائعا تحت العناوين السياسية اللماعة الكبيرة . وحتى الدراسات النظرية لم تستكمل بعد شروط التحليل الواعي والشامل للابسات هذه التجربة بكل ابعادها . ولكن الادب جاء ليصور لنا حياة هذا الانفصال ، من خلال الناس البسطاء . فيطلعنا على ذلك الجانب المجهول من مختلف المعاني والمواقف وردود الفعل لدى قاعدة الشعب في جماهيرها الحقيقية .

فلم يحدث ان حركت كارثة قومية مثل هذا القطاع الكبير من الجماهير العادية البعيدة في الماضي عن اية ممارسة سياسية ، كما حركت ضربة الانفصال جماهير سورية ، وخلفت اثرها في كل نفس . لقد دخلت الكارثة ، في شكل مصيبة شخصية ، الى احياء البسطاء والفقراء من الناس ، كما دخلت بيوت المتوسطين .

ومنذ ان حل الانفصال بهذا البلد المناضل الابي وتتابعت فصوله المختلفة ، في المراحل الرجعية ثم التقدمية المزيفة ، والمأساة تعشش في البيوت والقلوب . وتمتزج يوميا مع الام الناس وشجونهم ، فتؤلف بذلك العمق الشامل للوحة الحياة اليومية في البيت والحي والمدرسة والمعمل والحقل .

ولذلك انطلقت الى مقاومة الانفصال كتل من الجماهير لم يسبق ان شاركت في مجهود سياسي يومي ، كما تشارك في الاحتجاج ومقاومة هذه الكارثة ، تحت اي قناع او شكل .

واديب نحوي الذي عرفناه منذ القديم مناضلا جماهيريا ، عاش تجربة شعبه في اكبر حصن للوحدة في مدينة حلب ، وفي مناطق احيائها القديمة الشعبية ، العريقة بتراث من النبل والعفوية والمطامح

البطولية .

لقد روى لنا (اديب) في مجموعته (حتى يبقى العشب اخضر) قصة النضال الشعبي ضد الانفصال ، من لوحاته الحقيقية ، ومـــن ابعـاده اليومية ، ومن مآثره الصامتة الرائعة . وبالرغم من وحدة الموضوع في هذه المجموعة ، الا ان (اديب) كان يقدم لنا في كل قصة بعدا جـديدا للمأساة ، ويبرز لنا نماذج انسانية اخرى تكشف في وقت واحد عـن عمق جديد للانسان الشعبي ، وعن معنى نضالي اخر من معاني مقاومـة الانفصـــال .

ثم مزج (اديب) هذا الانبثاق الانساني الملون بمادة من الفولكلور، لم تعرفها القصة العربية من قبل . لقد حاول اديب ان يبطن اثار النكبـة وامتداداتها لكل مظهر من مظاهر الحياة الشعبية ، لعادات ابناء الحي والقرية ، وللمعتقدات الغيبية ، وللطقوس والاخلاق ومظاهر السلـــوك المعقدة ، التي يمارسها اكبر قطاع انساني من امتنا ، وكيف ان كلهذه الظواهر الاجتماعية والفردية قد اتخذت ايقاعا خاصا ، هو ايقاع الفجيعة والتمرد في الان ذاته .

واديب يكتب لنا كل ذلك من خلال ما عاناه هو نفسه بين رفاقـه واصدقائه من ابناء الاحياء الشعبية . هذه الاحياء التي نشأ فيها اديب واحبها ، ثم تبناها انسانيا ، وجعل منها قطاعه المأثور للعمل الثوري .

واديب بلغت تجربته مع هؤلاء الشعبيين ذروتها خلال مرحلـــة الانفصال الاول . فلا يكاد يصور لنا لوحة شعبية الا وهي صدى لزخم معاناة حقيقية . فلقد ناضل اديب مع هؤلاء الناس ، سكن بيوتهـــم البسيطة واختبأ معهم في المقابر ، ونظم معهم مختلف اشكال المقاومـة ضد سلطات الانفصال . وهكذا فان (اديب) وهو يكتب لنا تلــــك القصص ، التي بمثابة الوثائق والشواهد على نماذج حقيقية منالحياة والفعل والثورة ، انما يسعى الى تكرار الواقع نفسه على مستوى الفن والمثل الدرامي .

ولقد اتبع اديب في هذه القصص ذات الموضوع الواحد ، المتعدد في ردود المواقف الانسانية عليه ، اتبع اسلوبا مرسلا ، ولكنه يبقـــى ملونا ببساطة الحديث العادي . حتى ليشعر القارىء أن البطل اما انـه يحدث نفسه او يحدث شخصا اخر . وهو في كل ذلك ، تراه يعيـــد ويكرر الفاظه وهي مشحونة بانفعالاته المباشرة . فالترداد ، والتقديم والتأخير ، والحوار الذاتي المرسل ، والالتفاتات الخارجية ، كلهـــا عوامل تريد أن تربط السرد بالفجيعة الشعبية .

ومن ناحية اخرى ، فلقد كتب (اديب) هذه القصص بلغة اقرب الى العامة . ولكنها ، على شدة بساطتها ، لا تخرج اجمالا عن الفصحى من حيث ايقاعها في النفس ، وان تجاوزت اساليب السبك الفصيح . فلقد اراد الكاتب ان يكون شعبيا في كل شيء ، حتى في السرد اللغوي.

ومع ذلك فقد ظل اديب يحافظ على مستوى في الحس الفني، جمل العبارات العامية ، والحوار الذاتي ، وكل هذه السيالة منالدفق الكلامي الذي يبدأ في اول القصة ، ويتابع دفقاته وتموجاته ، ذات وقع شاعري ، يهز النفس ببساطته وبراءته .

فاذا ما استمعنا الى ذلك الشيخ الهرم الذي يجلس بجانب قبر ابنه ، وهو يسرد لنا الامه من خلال خطاب يوجهه الى اولاد في سن ابنه اعتادوا ان يقرأوا القرآن على القبور لقاء اجور زهيدة ، فاننـــا نلمح ابعادا متتابعة وراء تلك الجمل البسيطة والذكية فـي الان ذاته . ففي هذه القصة الاولى من المجموعة ، والتي جاء منها اسم المجموعة (حتى يبقى العشب اخضر) يقدم لنا الكاتب لوحة انسانية حافلـــة بالظلال الموحية والملامح الشعبية الفولكلورية .

وتكاد هذه القصة في الواقع تكوِّن النموذج الاساسي للنوعالذي سوف ينمو وينضج خلال بقية القصص في المجموعة . فهي تحـــوي مختلف الخصائص التي ستتضح بعض جوانبها بـــين قصة واخـرى . كالبساطة المشبعة بالايحاء ، والانفعال المباشر والصدق المتعاطف بينالبطل والقارىء ، والاشارات الرمزية ذات الدلالة الاجتماعية والثورية ، وذلك التموضع في الامكنة وضمن نماذج الحياة اليومية الشعبية ، وخلال العلاقات العضوية الانسانية في وحدة ابناء العائلة وابناء الحي ، كرمز للوحدة القومية في صورتها الانسانية المباشرة . ثم هذا الكشف المتواصل لجرم الانفصال ونذالته ، امام البراءة المطلقة التي يمارسها هـــؤلاء الابطال الشعبيون ، والتضحية المتواصلة من خلال ظروف الفقـــر والاضطهاد . فكأن الكاتب في النهاية يريد ان يعيد تلك الموضوعـــة الاساسية للثقافات الاشتراكية وهو ان الشعب وحده يملك كل ما خسرته الطبقة الغنية الاخرى وما لم يمكن ان تعوضه . انه مستودع البراءة والاخلاق ، وهو وحده الذي يستطيع ان يحس بالمفارقات والاخطـــاء والجرائم دون مواربة او تغطية .

في قصة (حتى يبقى العشب اخضر) يخاطب البطل اطفالايمارسون القراءة على القبور . فالمقبرة هي على طرف الاحياء ذاتها التي تعيـــش فيها هذه الطبقة ، والاولاد من الحي نفسه . والرجل يعرف آباءهؤلاء الاولاد . وهكذا تبرز هذه الرابطة العضوية في المكان وفي الجمـــاعة الانسانية . فليس ثمة غربة بين الذات والذات . ولكنهـا غربـة بـــين الناس جميعا وبين الجريمة ، هذا الوحش الخارجي ، الذي داهم كل علاقة طبيعية ، كل امن بريء ، كل سلام اصيل تلقائي . فكأنّ بمثابة الكاشف ايضا لاخفى آلام هذه الجماعة البشرية ، ولكنوز قيمها الابدية في الوقت ذاته .

ان « صالح ابو الشامات » الرجل « السوادي » الذي قضـــى حياته يكنس شوارع الاغنياء ولم يرزقه « الله » الا بولد واحد بعـــد تسع بنات وقتله الانفصاليون ، يقص علينا من خلال تفجعه على ولـده وفقره وشيخوخته معنى ذلك الصمود الاصم المستمر امام النوائبكلها، حتى مصيبة الانفصال نفسها . ومن خلال كل ذلك يربط الكاتب حيـــاة الشيخ بحيه واباته واجداده وبارض « الجبانة » نفسها ، ويبرز عادات شعبية كثيرة من اثناء السرد كعادة زيارة القبور والقراءة عليها ، وانبات

منشورات عويدات تقدم لــك

المكتبة الفلسفية

		ق . ل .
١ ـ من الجوهر الى الوجود	للدكتور كمال الحاج	٢٠٠
٢ ـ القنبلة الذرية ومصير الانسان	لكارل ياسبرس	١٠٠
٣ ـ تاريخ الفلسفات الكبرى	لبيير دوكاسيه	٢٥٠
٤ ـ مدخل الى علم الاجتماع	لارمان كوفيليه	٥٠٠
٥ ـ مدخل الى فلسفة ديكارت	للدكتور كمال الحاج	٣٠٠
٦ ـ تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى	لديكارت (فرنسي عربي)	٦٠٠
٧ ـ المسألة الفلسفية	للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا	٣٠٠
٨ ـ تيارات الفكر الفلسفي	تأليف اندريه كريسون	١٠٠٠
٩ ـ فلسفتنا	للعلامة محمد باقر الصدر	٨٠٠
١٠ ـ الانسان المتمرد	لالبير كامو	١٠٠٠

منشورات عويدات
بيروت ـ لبنان

ص. ب ٦٢٨ ـ تلفون ٢٤٢٦٦٠

الحشائش فوقها ، ودفن المولى الاقرباء فوق بعضهم في قبر واحد . كما دفن هذا الشيخ ابنه « عبد القادر » في قبر ابيه « عبد القادر » وهو اسمه ايضا . فكان ايقاع الميلاد والفقر والبنات التسع والمآسي القومية ، ودفن الاحفاد في احضان الجدود ، هو الايقاع الرتيب لحياة البؤس والنبل ، حياة الانسان العربي المسحوق .

ولعل من ابرز تلك اللفتات الرمزية ، التي تجري مجرى السهولة وليس الاصطناع ، في هذه القصة عندما يربط هذا الشيخ بين مقتل ابنه على يد الانفصاليين مع تحديد ذلك المكان « الغريب » ، مكان الاغتيال « قتلوه عند العبارة ، هل تعرفون بناية العبارة ، قريبا من باب الفرج ، حيث العمارات العالية والسيارات الكثيرة ، والسينما .. ؟ » ، وبين مقتل ابن جاره على يد اليهود في الجبهة .

ثم هذا الاقتران الشاعري ، وكانه جزء من سمفونية شعبية ، بين ابن الشيخ وبين الزهر ، اذ كان يعمل عند « جيناتي » لغرامه بالزهور والورود . ثم حتى عندما مات ، فقد كان ينقل الزهور . ثم ايضا وضعه معلمه وهو جثة هامدة في صندوق للزهر ليخفيه عن الانفصاليين الذين كانوا يجمعون الجثث ويخفونها اثر كل معركة بينهم وبين الشعب .

ولم تبق لهذا الشيخ سوى امنية واحدة يتمناها على اولاد الحي : « لكن يا اولاد الحلال ، تعملون معي اكبر معروف ، ويكون لكم عند الله الثواب ، اذا حمل كل واحد منكم من بيته القريب ابريق ماء يوم الجمعة ، واتى في شهور الصيف حين ينقطع المطر ، فسقى هذا القبر بالماء ، حتى يبقى العشب الذي ينبت فوقه اخضر . »

***

وفي قصة « شيخ الضيعة » ينتقل بنا « اديب » الى لوحة فولكلورية جديدة ، تبرز الوانها الشعبية على عمق نضالي رائع. فالاحياء الشعبية والقرى الريفية ، التي دخلت كلها مجتمعة ، في حرب مختلفة الوسائل ضد الانفصال من يومه الاول ، هي التي تلقفت قضية الوحدة والاشتراكية ، بصورة لم يعرفها اي قطر عربي اخر من قبل . ان اديب يبرز لنا نموذج « شيخ الضيعة » بفروره الساذج وكبريائه المحببة ، من خلال حوار طريف مع حمال من المدينة . فنعلم ان شيخ الضيعة قد نزل المدينة هذا اليوم وهو يحمل اطعمة الى مكان معين ، نعلم انه السجن، والى اشخاص ، نعلم انهم ليسوا ابناءه فقط ، ولكنهم ابناء «الضيعة». ثم يحكي لنا القاص من خلال هذا الحوار الطريف الذي يكشف ، في طريقه ايضا كثيرا من مثل القروي وعاداته ، كيف ان هذه القرية الصغيرة الضائعة في ريف حلب ، قد وجدت هي ايضا اسلوبها في مناضلة الانفصال . فلقد رفعت علم الوحدة يوم ان زارها احد وزراء الانفصال . ثم انها ابدلت اسمها من « الرفاعية » الى قرية «الوحدوية». ورفض شيخ الضيعة ان يختم المعاملات الا باسم القرية الجديد .

ويعرج الكاتب على فصل اخر من فصول الانفصال . ولكنه لا يقدم لنا ذلك الا من خلال الانسان ، الانسان العربي والشعبي . وفي هذه المرة نحن امام جندي شاب ، يقوم بخدمة العلم . وقد كلف في الثلاثين من ايلول المشؤوم بحراسة نوع معين من « السجناء » . انهم كوم من الرجال والنساء والاطفال ، قد كدست في البرية خارج حلب . وكانوا قسما من شهداء الايام الاولى للانفصال .

وان حمدان الذي يرفض ان يعترف بانه يخاف من هذه الحراسة للاموات ، يصر على ان ارتجافه هو لانه « بردان » . ولا بد لنا من ان نتعرف الى شخصية هذا الشاب . فيسرد لنا الكاتب خطوطا اساسية لحياته ، بذلك الاسلوب الذاتي ، الذي تظل كل تفاصيله ملونة بالموقف الاساسي في القصة : رفض الخوف والتمسك بالتجلد . ثم يتطور الموقف نفسه الى هذا الندم المحاط بالبراءة عن شيء لم يرتكبه الجندي. فلقد ظل يذكر القتلى كيف حدثوه في تلك الليلة ، وكيف كانوا يقولون له : هل نحن اشترينا لك البندقية يا حمدان لتقتلنا ؟

ولكن حمدان الذي تناط به فيما بعد حراسة « الجبانة » خوف ان يهرب اليها المجتمعون ليلة عيد الوحدة ، يدرك ان الذين قتلوا لم يقتلوا الى الابد . وان نيام الثلاثين من ايلول قد « قاموا » . وها هم يهجمون عليه من كل حدب وصوب فالمقاومة اذن لم تمت ، ولم تقتل ، ولم تنم الى الابد !

***

ومن القصص التي تجمع بين مختلف ميزات هذا النوع النادر في ادبنا المعاصر ، اي الفولكلور الشعبي ، والمأساة الانسانية ، والاسلوب الشاعري الملون ، والعمق القومي والوجداني ، قصة « ليلة الزفاف ». فهي في الواقع قصيدة شعبية منثورة ، ذات ستة اصوات في جوقة جماعية واحدة تتألف من ام العريس والعروس ووالدها والعريس والعروس . وترى الكاتب يدع كل صوت على حدة ، ينشد تساؤله عن السبب الذي جعل العريس يؤجل ليلة زفافه ، دون ان يعين موعدا اخر لها . ولكن هذا التساؤل يأتي ايضا كاشفا من خلفه مختلف مظاهر النموذج الفولكلوري للزواج ، وما يحاط به من طقوس وغيبيات ، وما يوضح من مفاهيم ومواقف الانسان الشعبي من هذا الطقس الحافل . ويسير كل نشيد ، مع ذلك ، على ايقاع جنائزي وتفجع بدائي ، وتوسل بالتعاويذ ، والادعية وترداد الامثلة الشعبية وغيرها .

فان ام العريس التي تبدأ هذه الجوقة الشعبية والطقسية،تأخذ في كشف تقاليد الاعداد لليلة الزواج « الكتاب كتبناه . ومد الصدر والجنب انهيناه » . وتتحدث عن الاستعداد في شراء الة الخزانة المؤلفة من قرص السكر الابيض والجوز واللوز والفستق . واستئجار التخت والكراسي والاتفاق مع « الخوجه » و « الرقاصات » . وكيف انها ارادت لابنها عرسا حافلا بالرقص والغناء وضرب « الصناجات » لا كعرسها الذي مضى دون ان يشعر به احد . ثم كيف مد العشاء وتهيأ كل شيء ولم يأت العريس . فقد قبضت عليه الشرطة . ولكن ها قد انتهى الحبس ومع ذلك فما زال العريس يرفض تحديد ليلة الزفاف . وتأخذ الام كما لو انها تحاول ان تتصور افراح ليلة الزفاف، فتبدأ في ايضاح تقاليد اخرى للحفلة قد يعرفها بعضنا ، ولكن اكثرنا هو في سبيله الى جهلها . ومع ذلك فعندما تبرز من خلال هذا السياق التفجعي ، تأخذ صورة فنية جديدة ، تكسبها ايحاء طقسيا اخر .

ويأتي صوت والد العروس الذي يدور نشيده حول موضوعة شعبية اخرى ، هي من تقاليد « الرجولة » في بلادنا . فكيف سيقابل الناس عندما يتساءلون عن سبب تأجيل الزواج من ابنته . ولا بد ان يلفظ بعضهم حول « اخلاق » الفتاة وهكذا .. ثم يكشف هذا عن بعض تقاليد « المرجلة » عندما كان شابا ويشرب العرق ، ويتشاجر مع رفاقه دون ان يقرب من ... الشرطة . ولكن احمد كيف سكر ليلة زفافه وتخاصم مع الشرطة . ثم ها هو قد خرج من الحبس والى متى يؤجل الزفاف .

ويعلو صوت ام العروس ايضا في هذه الجوقة النموذجية ، فتضرب هي الاخرى على وترها الخاص ، من خلال مخاطبتها لام العريس. فتذكرها كيف طالت فترة مناقشة المهر . وكيف ان بنتها عيوش الجميلة « الشقراء البيضاء الخ » ، كانت مجال تنافس لاكبر عائلات الحي.ولكن اباها فضل احمد على الاخرين لان والده كان صديقا له . ولان«القسمة والنصيب» هي التي حسمت كل نقاش اخيرا . واخيرا تود الام ان تعرف من ام العريس ، بالرغم من ان الشباب يحسدون ابنها على هذه الفتاة الرائعة ، هل ان العريس قد « قلب » . والكلمة في العامية تحمل معاني كثيرة منها الخوف من التعريض بشرف الفتاة ، والشماتة من قبل الحساد وغير ذلك ، مما يعتبر في طقوس هذه الحياة اشبه بكارثة تحل بعائلة الفتاة وسمعتها معا .

وننتقل الى اسلوب اخر في النشيد على لسان العروس التي تخاطب بنات الجيران صديقاتها وهي تخشى من التأويلات والقيل والقال. وتكشف عن قصة حبها بأحمد ، حين تذهب الى ملء (السطل) من (حنفية) الحي وتراه وتعجب بجماله . ثم تشن هجوما معاكسا على البنات اللاتي يتقولن الان حول الغاء الزفاف . فترميهن بالحسد والغيرة

لان احمد الشاب الجميل القوي ، قد اختارها هي من دون بنات الحارة كلها . وكذلك تعرف من خلال حديثها ان سبب زواجها كان هو الحب ، والحب وحده الذي تفخر به هذه الفتاة . ونعرف كيف ان اهلها ارادوا ان يقسروها على الزواج من شاب اخر دفع مهرا غاليا . ولكنها هددت هي بالسم . وهكذا فلم يكن السبب اذن كما ادعى والدها وهو انه كان صديقا لوالد العريس . ولا كما ادعت الام انها (قسمة ونصيب) .

ويأتي اخيرا صوت العريس ، ليكون خاتمة لهذه الجوقة المأساوية. فنعلم منه انه قد رفض الزواج حدادا على صديقه الذي اغتاله الانفصاليون يوم ان نظم معه مظاهرة للعمال في صبيحة اليوم التالي للانفصال . وحدادا ايضا على العشرات الاخرين من رفاقه الذين سجنوا وعذبوا . ومن خلال صوته يطلعنا على جانب من قصة الانفصال في يومه الاول في حلب . وكيف ان قائد الموقع كان مصمما على المقاومة ولذلك دعا زعماء العمال والاحياء لتنظيم مظاهرة في اليوم التالي وتسليمهم اسلحة . ولكن الانفصاليين كانوا في نفس الليلة قد استطاعوا ان يحتلوا الموقع ويسيطروا على حلب (عسكريا) .

ان احمد يقول مخاطبا امه : قومي وتغطي بالملحفة ، واذهبي الى بيت العروس وقولي لامها وابيها ، ولكل من يسألك من اهل الحارة : ان احمد بن حسن البطل ، لا يتزوج ابدا ، ولا يفرح ، الا بعد ان تعود الوحدة .

لا شك ان هذه القصة في المجموعة ، تأتي في المستوى الاول من حيث تحقق النموذج الشعبي الدرامي والانساني الذي التزمت به المجموعة كلها .

وفي القصص الاخرى يعرض اديب الوانا اخرى من نماذج الكفاح الشعبي العفوي الذي قدمته مدينة حلب عن سورية كلها . فلا يترك نموذجا الا ويحلله من خلال هذا الدفق الشعبي السمح ، ومن ملامح فولكلورية غنية ، ومن برادة انسانية مطلقة ، تكشف عن اصالة القيم في تربة هذا الشعب الكافح .

ان التعذيب في الاقبية ومراكز الشرطة ، وسجن المئات في غرف ضيقة ، و (تعرفة) الضرب بالسوط على الاقدام والظهور تبرز كلها من خلال قصة (الجدول والتعرفة) . والمعذبون دائما عمال وشباب صغار ، ومن عائلات فقيرة ، وامهاتهم تجاهدن في الخدمة والعمل من اجل تربيتهم ثم دفعهم الى ساحات النضال .

وفي القصة ايضا شبه اسطورة عن كيفية كسر يد احد رجال الشرطة الانفصاليين اثناء ضربه لاحد المعتقلين . وكيف تداول الناس هذه الاسطورة . اذ ان عجوزا هي ام لاحد الشباب الصغار المعتقلين ، قد وقفت خارج المخفر وكشفت عن رأسها ودعت على يد كل من يضرب ابنها بالكسر . وفي تلك اللحظة كسرت يد الشرطي . وتبين بعد ذلك كيف ان هذا الكسر قد حصل عندما استطاع الموقوفون ان يهجموا على الشرطي الوحش (اسعد طرابيشي) ، ووصل منهم شاب « أطول من اسعد طرابيشي واعرض ولون وجهه اسمر ، وله شاربان مبرومان . تلقاها (اي الذراع) بسرعة ، وهي نازلة وبكلتا يديه وزعق :

ـ قف يا كلب حتى اعلمك كيف تضرب الرجال ، لا النسوان العجائز والاولاد الصغار .

ثم هوى بها على ركبته ، في ضربة واحدة : طاق .. فانكسرت شقفتين ! »

ومن هذه القصص النماذج ايضا (حجر الزهر) التي تحكي طرفة رائعة عن ذلك الاندفاع التي اختفت وراءه دائما ، وكلها منتزعة فعلا من صميم الواقع .

فان شيخا قد ابتكر اسلوبا لكي يضع حدا للتنافس بين ابنائه من اجل الاشتراك في المظاهرات الدائمة التي كانت تخرج من الاحياء الشعبية ، وتقدم في كل مرة عشرات من القتلى والجرحى والمعتقلين . وهو تنافس كان يجري بصورة خاصة على حمل علم الوحدة في مقدمة المظاهرة . كان الشيخ اذن قد توصل الى اسلوب لتنظيم هذا التنافس يضرب بحجر الزهر ، ولكل ولد رقم ، وكان الاب والام ، الحرمة (ايضا) والاولاد الكبار يتحايلون كلما جاء الزهر برقم الولد الاصغر عمر . ولكن عمر كان يتحرق للعمل ، وعندما وقع الزهر وجاء رقمه بالرغم من احتياطات الاب والوالدة ، فانه خرج في اليوم ليحمل العلم على رأس مظاهرة المعمل الذي يشتغل هو فيه ، فكان ان قتل قبل ستة اشهر . ثم حمل الاب العجوز هذا العلم ايضا باسم ولده الاصغر عمر. وكان نصيبه ان يدخل السجن ، وان يلعب بالزهر امام الاخرين الذين عابوا على رجل عجوز ان يلعب بالزهر ، ان يقامر، قبل ان يعرفوا قصته.

واما قصة (صفارة الحارس) فتعطينا ايضا صورة تحقيق عن اسلوب اخر من تنظيم النضال الشعبي في احياء حلب ، باسلوب رشيق معبر . فنعلم كيف ان (الاولاد) يخرجون ليلا ويلصقون المناشير ، ويكتبون عبارات الذم بالانفصاليين على الجدران . وكيف قد اخترعوا (لعبات) كثيرة لتضليل الحارس ، والهرب من صفارته . ونطلع على الوسائل الاولية التي يخترعها هؤلاء (الاولاد) في تأليف جمعيتهم ، وجمع الاشتراكات من (الخرجيات) ، والحصول على ورق للمناشير من دفاتر المدرسة ، وتدبير الصمغ بواسطة النشا ... وكل هذه الطرق البسيطة، التي كانت مع ذلك سلاحا رهيبا لزعزعة مختلف عهود الانفصال.

ولعل من اكثر هذه القصص تأثيرا ، قصة (مطاليب الشعب) . وهي تتلخص في مظاهرة صامتة من مختلف رجال وشيوخ الاحياء وقفت امام قصر المحافظ ثم عندما دخل وفد على المحافظ الذكي وقالوا كلمة واحدة : بدنا اولادنا ! راح هو الاخر يهدد ويرغي ويزبد ثم يلجأ الى اسلوب التطمين ، ويعد بالافراج عن المعتقلين .

ولكن غاب عن المحافظ ان (الاهالي) كانوا يطلبون : جثث ابنائهم الجثث التي دفنت فوق بعضها في حفر كبيرة .

« فكيف يذهب الواحد منا ، يوم نصف شعبان ، او صباح يوم العيد ، ويستطيع ان يعرف اين هو قبر ابنه ، ليقرأ له سورة ياسين ، ويفرق رطلين من الخبز للفقراء على روحه .. كيف ؟ يا سيدي ، يا عطوفة المحافظ ؟ »

***

ان (اديب نجوي) الذي عانى الانفصال الرجعي الاول كواحد من طليعة القادة الشعبيين في حلب المجاهدة ، عانى هذه القصص ايضا . فكان واحدا من الفنانين الادباء السائرين في قافلة الثقافة الشعبية الهادفة . وفي مجموعته الاولى هذه لم يقدم شواهد ووثائق عن احداث وظواهر ونماذج من العمل ضد الانفصال والانفصاليين ، لم تعرف الا من خلال بعض عناوين الصحف والاخبار العابرة ، بل اعطى فنا شعبيا جديدا غنيا ، لم يشق طريقه بعد في آدابنا المعاصرة .

وان (اديب) الذي ما زال يقود هذا النضال الشعبي في حصن الوحدة الاكبر في حلب ، ضد الانفصال البعثي الجديد ، الذي حاول ان ينجح في القمع والارهاب والتعذيب ، ما لم ينجح فيه انفصال الكزبري السابق ، هو الذي يفتتح ادب (الوثائق) في ثقافتنا الملتزمة الجديدة.

ان هذه المجموعة الرائدة ، الى جانب الذخر الفني والفولكلوري ، تريد ان تبرهن على شيء واحد ، لكل انفصالي رجعي او عقائدي وهو :

ان محاربة الوحدة في سورية مستحيل ، ولا يقدم عليه الا مجنون او عميل ، وكذلك فان استمرار الانفصال في سورية هو مستحيل اخر .

ولعل الانفصاليين القدامى الذين جربوا هذا (المستحيل) وآثروا السلامة موقتا ، يقدمون لتلامذتهم الجدد هذه النصيحة ، التي راحوا يصطدمون بها كل يوم ، وتحت كل قبو للتعذيب ، وفي دهليز كل حي ، وفي كل غرفة من قضبان وعصي وزبانية .

الانفصال مستحيل ، ومحاربته مستحيل اخر ، فلا بد قبل ان (يستقر) من قتل كل الشبان ، كل الشيوخ كل النساء وكل (الشعب) في سورية .

والذين ما زالوا (ماضين) في هذا القتل ، بدأوا هم انفسهم يدركون عقم المحاولة . وراحوا يوما بعد يوم يغرقون في الدم ، دم (الشعب) حتى اعناقهم .. وان موعد اختناقهم فيه لقريب . وذلك هو الممكن وحده . .

في كل هذه المأساة المستحيلة !

مطاع صفدي